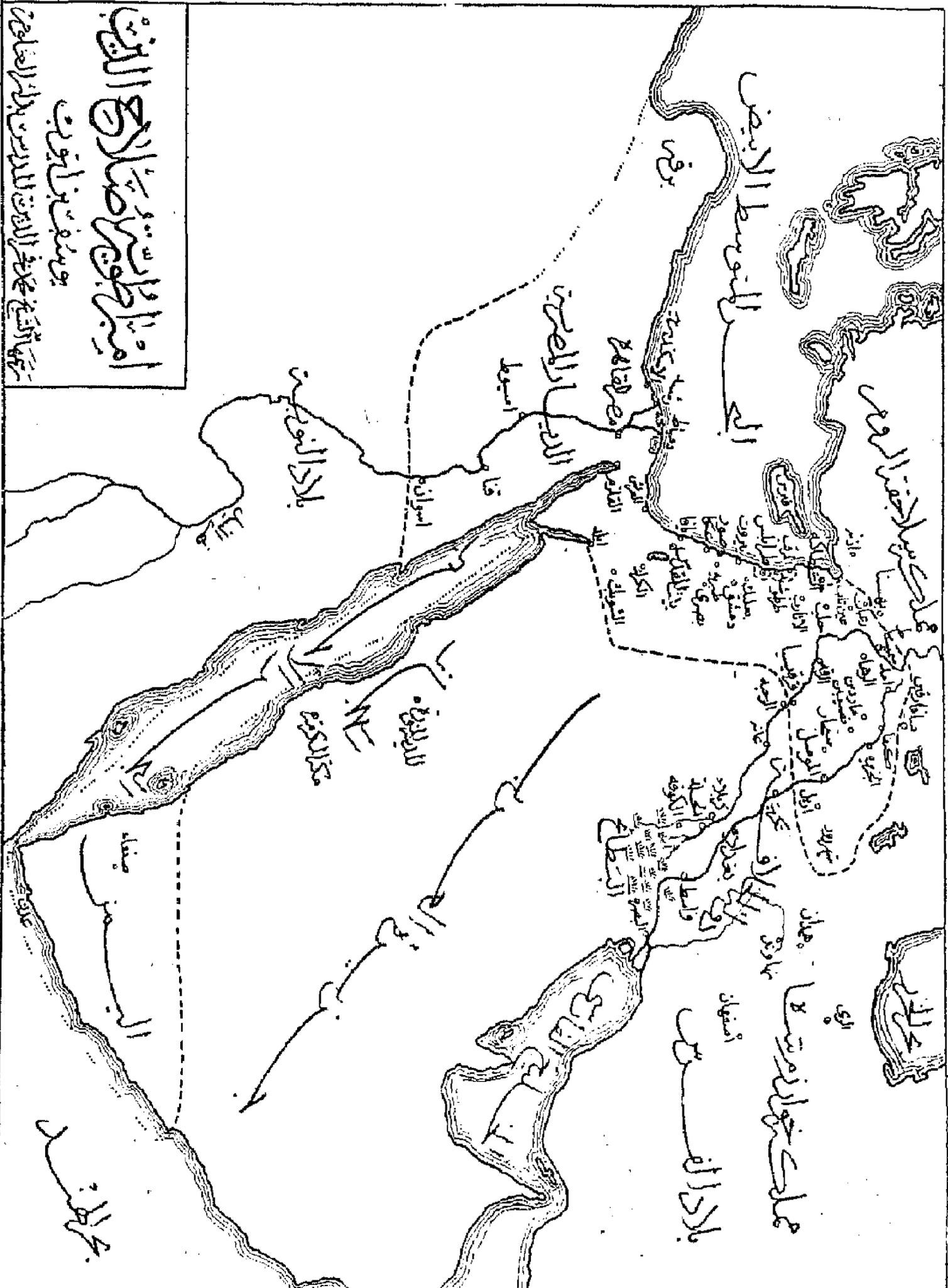


## خاتمة

رأينا فيما تقدم ما قام به صلاح الدين من أمر الجهاد الذي نصب نفسه له من يوم أن تولى وزارة مصر ، وما أداه من الخدمات الجليلة للشرق ، وما ظفر به من النصر على أقوام الأفرنج وأمرء المسلمين ، فاستطاع أن يوحد قطرين من أقطار العالم الإسلامي بعد أن فرقتهما الأحزاب الدينية ، وبعثرتهما المطامع الشخصية ، فجمع تحت سلطانه ، من الكردستان حتى بلاد تونس ، أقواماً اختلفت عاداتهم ، لكن وحدتهم قوته ، ولا امت ينهم شفقتة ،

ما كنا نرى بين هذه الأجيال المختلفة من الناس إلا المحبة والوئام وتلبية للسلطان في ساعات الأخطار ونزال الأعداء ، ذلك دليل على المحبة والاحترام ، وما أحبه الناس واحترموه إلا لأنهم وجدوا فيه لهم ناصراً ، ولا أعدائهم خاذلاً ، ليس لأمره يسعى ولا ثروته يعمل ولا مصالحه يجسد ، بل كان سعيه وعمله وجده لصلاح الإسلام والمسلمين ، فلبى الرؤساء نداءه ، واستمع الناس قاطبة له ، وهكذا كل حامل للمصلحة العامة

ولقد علمنا من حوادثه كلها أنه ما كان يعمل برأيه منفرداً ، بل يأخذ على الدوام برأى الجماعة لِمَا كان يراه في رأى الفرد من الاستبداد بالامر ، وهو يكره الاستبداد والمستبدين ، عملاً بأمر الدين وجرياً على سنة رسول الله ، فاحظر كثيراً للعدول عن رأيه وهو يعلم صحته ، خضوعاً لرأى الجماعة ، كما حصل أمام عكا وصور



# امبراطورية مصر القديمة

يوسيفوس بن يوسوب  
 في كتابه التاريخ  
 جلد 1، الفصل 15، الاصل 1

النيل الأبيض

النيل الأزرق

بلاد النوبة

بلاد العرب

مصر القديمة

صيف  
 النيل  
 بحر الاحمر

اتخذ في أول أمره من أهله وذويه عوناً له في تنظيم الأحوال وترتيب الأمور، دون أن يرتاب في أحدهم أو يأخذه الشك في أمرهم، فعززوه ونصروه، ثم ركن إلى أهل المقدره من أتباعه وخواصه، فأدوا له من الخدمات أجلها ومن الأعمال أكثرها نفعاً وأعمها فائدة، وهوؤلاء وهؤلاء في خدمته أطوع له من يمينه، وعلى ملكه أحرص منه نفسه، لا تلهيهم أعمالهم ولا أموالهم ولا أولادهم عن خدمة السلطان، سواء أتمتعوا بالراحة أم لم يذوقوا طعماً للنوم، وكان السلطان حيال هذه الخدمات لا يقصر عن تقريرهم منه وإجزال العطايا لهم وتفويض الأمور إليهم حتى كان يحدشهم بما هو عازم على عمله، ولا غرو فهم عدته وعماده، وقد قال لكتابه الخاص بهاء الدين، بعد أن تم صلح الرملة، إنه يود أن يسير بالجيش إلى ناحية الشرق، نحو فارس وما جاورها، لولا ما عليه الجيش من التعب بعد هذه الحروب الطاحنة

مات هذا السلطان الكبير، والفتاح العظيم، والقائد الفذ، فلم يبق واحد من أتباعه إلا بكاه بكاءً مرراً، وحزن عليه حزناً شديداً، ذلك لأن كل فرد من رعيته كان يرى فيه أباً رحماً، ووالداً شقيقاً، وحاكماً عادلاً، وسلطاناً على الأعداء شديداً، وفي الحق صليماً، وعلى الظالمين قاسياً، وعلى مصالح المسلمين ساهراً، وفي جهاد الله مشابراً، ولتوحيد كلمة المسلمين عاملاً، ولصالحهم كلهم على السواء دائماً، لا ينام إلا على مصالح المسلمين، ولا يستيقظ إلا على ذكر أحوال البلاد، لا يقعه عن ذلك كله مرض، ولا يلهيه عنه أهل ولا ولد، فأحبهته الناس حياً، وجمعت فيه ميته، فبكته بكاءً

الثواكل . وإن الذي يقرأ ما قاله لولده الظاهر يوم أن أرسله إلى حيث ولّاه ،  
ليدرك بلا عناء سياسته التي اتبعها والتي كان يتخذها شعاراً له في أيامه ،  
غيبته للناس قاطبة . أنظر إليه وهو يقول له «أوصيك بتقوى الله تعالى فإنها  
رأس كل خير ، وأمرك بما أمر الله به ، فإنه سبب نجاتك ؛ واحذر من الدماء  
والدخول فيها والتقلد بها فإن الدم لا ينام ؛ وأوصيك بحفظ قلوب الرعية  
والنظر في أحوالهم ، فأنت أمين وأمين الله عليهم ؛ وأوصيك بحفظ قلوب  
الأمراء وأرباب الدولة والأكابر فما بلغت ما بلغت إلا بمداواة الناس ؛ ولا  
تحمد على أحد فإن الموت لا يبقى على أحد ، واحذر ما بينك وبين الناس ،  
فإنه لا يغفر إلا برضاهم ، وما بينك وبين الله يغفره الله بتوبتك إليه فإنه  
كريم»

لا يمكن أن يلاحظ الأتسان من أخبار صلاح الدين أو يلمح من أحواله  
مع رعيته أهبة الملوك وعظمة السلاطين ، فكان لأي فرد من أفراد رعيته  
أن يصل إليه من غير عناء ، لا يعترضه حاجب أو وزير ، لا خوف ولا رهبة ،  
يذهب صاحب المظلمة بنفسه ويبت للسلطان شكواه ؛ وقد تزاحم عليه  
الوفود من أصحاب المظالم فلا يضجر ، وما توافد الناس عليه إلا لمعرفة قلوبهم فيه  
لين الجانب وإحقاق الحق ، وأنه الأليف الأنيس اللطيف معهم على السواء ،  
وكان فوق هذا رقيق القلب سريع التأثر ، تتحرك عواطفه وتدمع عيناه عند  
سماعه أصوات الضعفاء والمساكين فيجزل لهم العطايا ، فكان قلبه مملوءاً  
حباً للإنسانية وأعمال البر والأحسان ، تلك الحالات التي لم تعرف إلا قليلاً في  
هاتيك الأيام ؛ وكان من الشفقة بحيث لا يستطيع أن يرى خادماً له يضرب ؛

وعجيب هذا من ساطان كانت السادة في أيامه تضرب عبيدهم وخدمهم ، وما كان يرى يتما إلا تحرك قلبه حناناً عليه ، فيؤويه إذا لم يجد له أهلاً ، فإذا وجد له من الأهل من يكفله سلمه إليهم وأعطاهم ما يكفي لتربيته .

كان مثال السذاجة في ملبسه وما أكله ومسكنه ، وقد بُني له مرة منزل أنيق في دمشق فلم ينظر إليه طويلاً وقال « ما كنا لنجلس في هذا المكان إلى الأبد ، فهذا المنزل لا يصلح لمن يطلب الموت ، وما نحن هنا إلا لنقوم بخدمة الله سبحانه » لم تفتنه أموال ملكه الواسع ، فكان يقول « إن المال والتراب سيان عندي » لذلك كان يكره أن يفد عليه سائل فلا يعطيه ، بل أكثر من هذا ، فما طلب منه إلا أعطى أكثر مما سئل ، وإذا أعيد عليه السؤال أعطى دون أن يقول « قد أعطيناك من قبل » ولكنة كثيرة بذله كان أعوانه ينكرون وجود المال لديهم حتى لا يكثر البذل فتفنى الأموال فلا يجد ما يعده به الجيوش لحرب الأعداء ، وليس أدل على جوده وكرمه وبذله أكثر من أنه عند وفاته لم يجد الناس لديه مالا ، كما أنه لم يترك ضيعة ولا قصرًا ؛ وإلى هذا يشير صاحب السمو الأ مير محمد علي في الرحلة الشامية « وكان رحمه الله غاية في الجود والكرم ، حتى قيل إنه لم يترك بعد وفاته سوى ٤٧ درهماً ، وهي ثروة ربما ترك السائل لأولاده أضعاف أضعافها ، ولكن السخاء والحنان والشفقة على المساكين والفقراء تستنفد المال ولو كان مثل الجبال » ثم يقول « دخلنا قبر هذا الملك وهو بجانب الجامع الأموي من جهة الشمال ، ورأينا حال دخولنا حديقة لا تزيد عن خمسة أمتار طولاً في مثلها عرضاً ، وهنا أخذتني هزة عند ما رأيت صلاح الدين

صاحب الحروب الصليبية ، والذي أخضع الجبايرة وأسر القياصرة ، والذي كان يضيق بهمته السماء ، فضاء ما بين الارض والسماء ، ينتهي أمره بسكنى هذا المكان الضيق ، وتكون حديقته أمتاراً معدودة ، يوجد في مقابر البسطاء من الناس ما هو أكبر منها ، نعم إن الميت في قبره لا ينتفع بسعة المكان ، كما لا يهمله شئ من زخارف الحياة ، وإنما كان أسنى من أن الشرقيين ، وهم أعرف الناس بقدر هذا الفاتح المظفر ، لم يحفلوا به كما يحفل الغربيون بعظماء رجالهم ، مع أن الغربيين أنفسهم قد قدروا قدر هذا الرجل ، وليس هناك أدل على ذلك من إهداء أمبراطور ألمانيا إلى قبره إكليلا زهرياً يسر الألسان أن يرى منه برهاناً على شعور جلاله الأمبراطور واحترامه ، بقدر ما يحزنه ألا يرى شيئاً مطلقاً من جانب الشرقيين عموماً والمسلمين خصوصاً على قبره »

نعم إن ما لاحظته سمو الأ ميرلدير بالاعتبار ، فإن المسلمين ليس لهم في قبر صلاح الدين أو عليه أثر يذكر ، وكان واجباً عليهم أن يقيم السلاطين ، وأخص بالذكر منهم أولئك الغزاة الفاتحين ، آثاراً تنبئ بأنهم يعرفون للرجل قيمته وجهاده في الله حق الجهاد ، لكنى لست أدري ما الذى أقعدهم ويعقد غيرهم عن العمل ؛ لعل ذلك راجع إلى جهالهم أحوال هذا البطل الكبير والفتاح العظيم ، أو أن هذا راجع إلى ما ينهى عنه الدين الأ سلامي في أصله من مسألة تزيين القبور وإعدادها للزيارة ، مخافة أن يقدم إليها العامة القربات وما يشبه العبادات من أعمال الوثنية كما هو حاصل وبمناسبة ذكر سمو الأ مير اسم أمبراطور ألمانيا أقول إن هذا

الأمبراطور زاربلاد الشام سنة ١٣١٦هـ (سنة ١٨٩٨م) ومعه الأمبراطورة ،  
ولما كانا في دمشق خطب خطبة قال فيها ما ترجمته « ومما يزيد في سرورى  
أنى موجود فى بلد عاش بها من كان أعظم رجال عصره وفريد دهره شجاعة  
وبسالة ، من كان قدوة الشهامة ، والذي كانت شهرته متجلية فى الآفاق ،  
ألا وهو القهرمان صلاح الدين الأيوبي » وقد أرسلت الأمبراطورة إكليلا  
بديعاً من الزهر ليوضع باسم الأمبراطور على ضريح بطل التاريخ العربي ،  
وقد نقش بالعريية على بند الأكليل ( ويلهم الثانى قيصر ألمانيا وملك  
بروسيا ، تذكارا للبطل السلطان صلاح الدين الأيوبي )

وقد قال شاعر النيل شوقي بك قصيدة عصماء عنوانها : ( تحية غليوم

الثانى لصلاح الدين فى القبر ) أورد منها ما يأتى

عظيم الناس من يبكى العظاما	ويندبهم ولو كانوا عظاما
وأكرم من غمام عند محل	فنى يحيى بمدخته الكراما
وما عذر المقصر عن جزاء	وما يجزيهمو إلا كلاما
فهل من مبلغ غليوم عنى	مقالاً مرضياً ذاك المقاما
رعاك الله من ملك همام	تعهد فى الثرى ملكاهما
أرى النسيان أظماه فلما	وقفت بقبره كنت الغماما
تقرب عهده للناس حتى	تركت الجليل فى التاريخ عاما
أتدرى أي سلطان تحيي	وأي مملك تهدي السلاما
دعوت أجل أهل الأرض حرباً	وأشرفهم إذا سكنوا سلاما
وقفت به تذكره ملوكا	تعود أن يلاقوه قياما

وكم جمعهمو حرب فكانوا  
كلام للبرية داميات  
فلما قلت ما قد قلت عنه  
تسألت البرية وهي كلى  
وأنت أجل أن تزرى بميت  
فلو كان الدوام نصيب ملك  
حدائدها وكان هو الحساما  
وأنت اليوم من ضمد الكلاما  
وأسمعت الممالك والأناما  
أحباً كان ذلك أم انتقاما  
وأنت أبر أن تؤذى عظاما  
انال بحد صارمه الدواما

كيف لا تجتمع الأمة الإسلامية بأسرها على هذا الرجل العظيم  
الذي كشف عنها الغمة التي امت بها من جراء تعدى الأفرنج عليها وعلى  
بلادها ، فنهض بجلائل الخدمات للشرق والشرقيين والأسلام والمسلمين ،  
فهو الذي قال لجنود الاعداء « قفوا مكانكم فيها قلب أسد أقوى من  
قاب أسدكم » دون أن يخشى سهام العدو المرسله إليه ، فأنهكت الحرب  
قواه ، ولقد كان يركب جواده ويقود جنده وهو مريض لا يستطيع  
الاطمئنان على سرجه فيقال له في ذلك فيقول « إني إنما أشعر بالمرض حين  
أترك ظهر جوادى » بهذا كله تقدم الناس بأرواحهم إليه

نعم وصل السلطان صلاح الدين إلى هذه المكنة في أمته بل وعند  
أعدائه بأقدام شهد بثبات جنانه ، ودربة استمال بها الأبواب ، وخبرة افتتح بها  
البلدان ، وقاد بها الأجناد ، حنان وشفقة جعلتا له من المكنة في قلوب رعيته  
ما لم توجد لغيره من قبله ، فأحبها وامل بكلياته على مصالحها ، فكان خلاصة  
الشرف الإسلامي ، وبقية المجد الشرقي ؛ يجتمع في مجلسه العلماء والوجهاء  
ويقصد بابه الفقراء والضعفاء وذوو الحاجات ، كل هذا وهو متواضع على

حد قول القائل « وأدهشني منه التواضع والتقى »

وكثيراً ما كان يعرض نفسه للخطر مع جنده ، رغبة منه في نجاة ملكه ، فلا يعرضه لهجوم العدو الذي كان يترصد به ، وهذا شتم وعلو نفس وإقدام قل أن يصدر مثله عن السلاطين والملوك ؛ على أنه فوق هذا ما كان يهدل في ترتيب شؤون بلاده ، يصرف وقتاً كبيراً في إعزاز شأنها ، حتى بلغت في أيامه ما بلغت ؛ وقد كان في رعيته كالأب الرؤوف يواليها بالنصيحة ، ويرشدها إلى سبيل الخير والسعادة

ولقد شهد له بهذا وبأكثر منه أعداؤه أنفسهم فقال استأنلي ما ترجمته « ولم تخطئ الناس إدراك أوصافه وأخلاقه ، فهو بلا نزاع شريف النفس همام شهيم شجاع وديع رقيق شفيق ، طاهر القلب نقيه ، ناصع الحياة زاهد فيها ، مجد كدود ساذج في أحواله كلها ، غيور على دينه ؛ بهذه الأوصاف أصبح جديراً أن يكون مثال البطولة في الإسلام »

وجاء في كتاب تاريخ المؤرخين ما ترجمته « والذي أدهش المسيحيين من أمر صلاح الدين هو سروته وشهامته وسخاؤه وكرمه ورحمته وحلمه وصفحه وعفوه ، لا سيما محافظته على العهود والمواثيق ، ومن المدهش أن تكون هذه الأوصاف التي ملأت قلوب أهل أوروبا إعجاباً هي الأوصاف التي يصفون بها ذلك الرجل الذي انتصر عليهم فمزهمهم في آسيا »

وإليك ما جاء في هذا الكتاب عند الكلام على صلاح الدين « ولقد كان من شدة كرمه أن عماله كانوا ينكرون عليه المال حتى إذا جاءت ساعة الحاجة إليه أخرجوا له ما يريد ، وهذا من كثرة بذله وإعطائه ؛ وكان من

عادته أنه إذا استولى على مقاطعة من المقاطعات نشر أعلام كرمه وسخائه على أتباعه وسكان الجهة ، فملك بذلك رقابهم ، ولما استولى على دمشق لم يأخذ لنفسه شيئاً من خزائنها ، بل وزع كل ما وجد على الأهالي ، يحترم كل من في خدمته ، ويعاملهم معاملة لينّة ، فإذا وقع من أحدكم ما يسيئه كتبه ولم يظهره ، وكان حريصاً في كلامه مقلّاً فيه ، فنسج على منواله أتباعه ، أما مجلسه فكان طاهراً ، لا يجسر فرد أن يقول سوءاً في جاره ، ولم يرتبما إلا تحركت فيه عاطفة الشفقة والحنان عليه ، وإذا قابل شيخاً هراماً بكى ، وكان فوق هذا محبباً لأولاده وأهله ، وكثيراً ما شارك أطفاله في لعبهم ، وكان دياناً ربي أولاده تربية دينية ، وكان يحب العدل ويعاقب كل من خالف أحكامه ، فكان يجلس للمظالم بنفسه مرتين في الأسبوع ، بابه مفتوح للصغير والكبير ، للغني والفقير ، في حله وترحاله ، في سفره ومقامه .

وقال عنه استيفن سن « كان صلاح الدين موفقاً في خطه ، ماهرآ في عمله ، سريعاً في تقدير قوى عدوه ، لم يتردد لحظة واحدة في تنفيذ ما رسمه ، أما نشاطه فما كان يعرف المال ولا التعب ، وكان صبوراً على الشدائد يثق بنفسه وثوقاً عظيماً . كل هذه من الأوصاف الظاهرة فيه ظهوراً جلياً ، نظره في الأمور نظر صادق ، وحكمه عليها حكم عادل ، إذا همت نفسه بأمر قام به بلا تردد ولا إبطاء ، كل هذه المزايا خدمته في أعماله السياسية والحربية »

واقطفت مجلة رعمسيس في عددها التاسع من السنة الخامسة من خطاب لسعادة أحمد زكي باشا سكرتير مجلس الوزراء سابقاً عن طاس

صلاح الدين » وقد كان القبط يحبون هذا الملك العظيم - صلاح الدين - الذي حماهم وراعاهم ، وعرفوا في ظله أيام السعادة والهناء ، وأي دليل على هذا أكبر من وضع صورته إلى جانب الآنية المقدسة ، ثم أردفت المجلة هذا بقولها «زار أحد شعراء الأندلس (عبد المنعم الأندلسي) في ذلك الحين مصر ، فدهش لما رآه من حب القبط لصلاح الدين ، فنظم في ذلك قصيدة تمثل الحقيقة التاريخية منها هذان البيتان »

فخطوا بأرجاء الهياكل صورة لك اعتقدوها كاعتقاد الأقدمين  
يديها لها قس ويرقى بوصفها ويكتبه يشقى به في التمام  
وبمناسبة ما جاء في هذه المجلة عن طاس صلاح الدين أذكر أن زكي  
باشا عثر على طاس نحاسية ( طاسة خضنة ) وألقى عليها محاضرة تاريخية  
باللغة الفرنسية في المجمع العلمي المصري ، وطبع الخطبة في كراسة  
صدرها بصورة صلاح الدين ، وهو يقول عن هذه الصورة إنه أخذها من  
صديقه المرحوم الشيخ مصطفى القباني الدمشقي الذي نقلها عن كتاب روسي  
يؤكد مؤلفه أنه وجدها في إحدى أديرة مصر ، والرسالة نافعة مفيدة  
وصف فيها زكي باشا تلك الطاسات وقيمتها الطبية في نفوس الامامة ، ثم  
ذكر من بين هذه الطاسات طاس صلاح الدين ، وإنما سميت كذلك لأنها  
أهديت إليه ، واستبدل على أنها أهديت إلى صلاح الدين بعدة براهين  
نازعه فيها حضرة الأثري على بهجت بك أمين دار الآثار العربية ، وكان  
وجه الخلاف على ما أذكر لقب من الألقاب التي وجدت منقوشة على  
الطاس (قسيم أمير المؤمنين) وبهجت بك ينكر هذا اللقب على صلاح الدين ؛

ويظهر أن الموضوع كان أقل من أن يتناقش فيه إلى هذا الحد الذي وصلت له المناقشة؛ على أنى لا أرى داعياً يدعو بهجت بك إلى أن ينكر على صلاح الدين لقب (قسيم أمير المؤمنين) وهما هي الجريدة الرسمية المصرية في عهد المغفور له محمد علي باشا تقول عن ديوانه (الديوان الخديوى) وقد وجدت عريضة مكتوبة في الوقائع الرسمية أيام محمد علي باشا يقول فيها مقدمها «إلى سعادة الخديوى محمد علي باشا» مع أن لقب خديوى ما وجد إلا بعد تولية المغفور له إسماعيل باشا؛ وعلى هذا فقد يكون الناس قد لقبوا صلاح الدين بلقب (قسيم أمير المؤمنين) كما لقبوا سائر الجنان محمد علي بلقب خديوى. أخذت المناقشة بين المتناظرين دوراً كبيراً على صفحات الجرائد ثم أسدل عليها الستار، وانتهت كما انتهى وينتهي غيرها من المجادلات في بلدنا

على أنه يجب علينا ألا نخضع خضوعاً صرفاً إلى ما رآه زكى باشا ولا إلى ما رد به بهجت بك، فإن المشكلة لم تحل بعد، وهى ان النقوش التى استعملت فى مصر وبلاد الشرق عامة لم تكن مقيمة غالباً بعصر ولا بملك، ولم تنشأ مدارس لدراسة النقوش العديدة وتاريخها وتعيين واضعها، كما هو شأن النقوش اليونانية أو اللاتينية، حتى يكون القول الفصل فى هذه الآثار إلى المتخرجين فيها، فقد ظهر من الاستقصاء أن الدول المتعاقبة كان يحاكي اللاحق فيها السابق فى زخرفه ونقوشه، وكثيراً ما كان اللاحق يزيد فى النقوش أو ينقص منها أو يغير فيها، لكن لا إلى الحد الذى يجعلها خاصة بعصر أو بملك، ومن هنا يجب الشك الذى بنينا عليه عدم الأذعان

إلى واحد من المتناظرين

تلك حياة صلاح الدين كما رأينا كلها حرب وقتال وجهاد ، على أنه رغم هذا قام بأعمال عمرانية يذكرها له التاريخ . رأى أن التدريس في جامع الفسطاط ( جامع عمرو ) يسير على نحو ما هو حاصل الآن بالأزهر فابتنى سنة ٥٦٦ ( ١١٧٠ ) المدرسة الناصرية بجوار الجامع النتيق وجعلها للشافعية ، وهي أول مدرسة أسست في مصر ، ثم ابتنى المدرسة القمحية بالقرب من هذه ، وجعلها خاصة بالمالكية ، ثم ابتنى مدرسة الحنفية سنة ٥٧٢ ( ١١٧٦ ) وجعلها في دار الوزير البطائحي وتعرف الآن بالمدرسة السيوفية حسب رواية سعادة أمين باشا سامي ناظر مدرسة دار العلوم سابقاً في كتابه عن التعليم في مصر

ولم يقصر السلطان همه على فتح هذه المدارس بل رتب الوظائف للمدرسين والطلبة فيها على السواء ، فتمكن بذلك من نشر المذهب السني وإحلاله عند العامة والخاصة محل المذهب الشيعي

ويقول صاحب كتاب صبح الأعشى « وأما الخوانق والرُّبُطُ فما لم يعهد بالديار المصرية قبل الدولة الأيوبية ، وكان المبتكر لها السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب رحمه الله ، فابتنى الخانقاه الصلاحية المعروفة بسعيد السعداء ، ووقف عليها قيسارية الشرب داخل القاهرة وبستان الحبانينة بزقاق البركة » ويقول أمين سامي باشا « مدرسة سعيد السعداء بشارع الجمالية تجاه حارة المبيضة ، بنيت برسم الفقراء الصوفية ، وتعرف الآن بجامع الخانقاه أو سعيد السعداء ، وكانت من دور الامراء الفاطميين »

على أن صاحب صبح الأعشى يقول «وسعيد السعداء لقب لخادم المستنصر الفاطمي اسمه قنبر كانت الدار له ثم صارت آخر الأيام سكن الصالح بن رزيك» ولعل سعادة سائى باشا أخذ ابن رزيك كأنه صاحب الدار باعتبار أن قد صارت سكناً له، كما أنه عدها مدرسة وهي لم تكن كذلك إلا بعد زمن صلاح الدين على اعتقادي

رأى صلاح الدين أن مصر ينبوع يانع يستقى منه قوته البرية والبحرية، فبنى السفن وعمر الأسطول، وإلى هذا يشير سعادة أحمد زكي باشا في محاضراته في الجامعة المصرية بقوله «وكان الأسطول أيام صلاح الدين ديوان مخصوص يسمى (ديوان الأسطول) وسامه لأخيه الملك العادل، فكان هذا الديوان يشبه ما كان معروفاً في أيام المغفور له محمد علي باشا (بديوان البحرية) وما هو معروف في أوروبا الآن (بنظارة البحرية) وهي الآن صفر في مصر لآعين ولا أثر؛ وكانت الأسكندرية ودمياط هما الموانئ البحرية في ديار مصر، أضف إليهما مدينة تينيس التي هي الآن خراب بلقع؛ أما الفسطاط وقوص فكانتا من أعظم الموانئ النيلية، وكان فيهما إنشاء السفن الحربية التي ترابط بتلك الثغور، وتذهب للغزو في البحر لأعلاء كلمة مصر، وجعل رايتها خفاقة في الخافقين»

نظر صلاح الدين إلى الأسكندرية فوجد لها محط أنظار الأفرنج، فخاف عليها منهم، فأمر بعمارة أسوارها وأبراجها؛ ثم ابتنى بها بیمارستاناً، بعد أن ابتنى واحداً بمصر، وفيه يقول صاحب صبح الأعشى «ولما ملك السلطان الديار المصرية، واستولى على القصر، كان في القصر قاعة بناها

العزیز بن المعز سنة ٣٨٤ هـ ، فجعلها السلطان بمارستاناً ، وهو البمارستان العتيق الذي بداخل القصر « ثم أنشأ السلطان بها داراً للغرباء ، كما أنه تعهد بعض الجسور والترع ليصلح حال المزارعين ؛ ولما كان من عادته أن يسرح جنده في الشتاء كان حال الزراعة على ما ينبغي

نظر إلى السكان وقد أثقلهم وزراء الفواطم بأنواع الضرائب المختلفة فأبطل المكوس ؛ وقرئت نسخة سجله على المنابر يوم الجمعة ٣ صفر سنة ٥٦٧ (٣٠ يونيو سنة ١١٧٠) وإليك بعض هذا السجل « وخرج أمرنا يكتب هذا المنشور ، بمساحة أهل القاهرة ومصر ، وجميع التجار المترددين إليهما وإلى ساحل المقسم (المقس) والمنية بأبواب المكوس ، صادرها وواردها ، فيرد التاجر ويسفر ، ويغيب عن ماله ويحضر ، ويقارض ويتجر براً وبحراً ، مركباً وظهراً ، سرّاً وجهراً ، لا يحل ما شده ، ولا يحاول ما عنده ، ولا يكشف ما ستره ، ولا يسأل عما أوردته وأصدره ، ولا يستوقف في طريقه ، ولا يشرق بريقه ، ولا يؤخذ منه طعمه ، ولا يستباح له حرمه «

من هذا السجل يدرك الأتسان مقدار ما كانت تصادفه الناس من شر هذه الضريبة وغيرها ، التي ما كانت تغادر غادياً ولا راحاً إلا كشفت ستره ، ومدت أيدي العمال إلى ماله فسلبته ، وإلى متاعه فتهبته ، وأوصات بعد ذلك منه إلى الخزانة السلطانية ما شاء لها طمعها . وقد نظم ابن جبير قصيدة في المكوس وأرسل بها إلى السلطان صلاح الدين منها

رفعت مغارم أهل الحجاز      بأنعامك الشامل الغامر  
وآمنت أكناف تلك البلاد      فهان السبيل على العابر

ثم يذكر ما وقع له وما يقع لأمثاله من المسافرين على يد المكاس فيقول  
يعنت حجاج بيت الأله ويسطوبهم سطوة الجائر  
ويكشف عما بأيديهم وناهيك من موقف صاغر  
وقد أوقفوا بعد ما كوشفوا كأنهم في يد الآسر  
ويلزمهم حلفاً باطلا وعقبى اليمين على الفاجر  
وإن عرضت بينهم حرمة فليس لها عنه من سائر  
أليس على حرم المسلمين بتلك المشاهد من غائر  
فما لنا كر من زاجر سواك وبالعرف من آمر

من إبطال هذه المكوس يدرك الألسان ما كان عليه السكان من  
لذلة من جهة ، وما كان يرغب فيه صلاح الدين من نشر التجارة وتسهيل  
سبلها من جهة أخرى ، لعلمه أنها مرقى الأمم إلى الحضارة والمدينة ،  
ولذلك قيل عنه إنه كان يبيعها مع الأفرنج في أيام حربه معهم .

يشير ابن جبير في قصيدته المتقدمة إلى إبطال مغارم أهل الحجاز ،  
وصحيح هذا فقد عوض أمير مكة عنها في كل سنة بألفي دينار وألف  
أردب من القمح سوى عدة إقطاع بالصعيد وباليمن ، فزال عن الحجاج ذلك  
العناء الذي كان يقف في سبيل كثير من الراغبين في أداء الفريضة .

هذا قليل من كثير من مناقب هذا السلطان الكبير والقائد العظيم  
والفاتح المظفر ، وعندى أن لو كثر بين ملوك المسلمين أمثال صلاح الدين  
لما وصلت الأمم الإسلامية من الضعف والوهن في أمورها الداخلية  
والخارجية إلى ما وصلت إليه ما

## مصادر الكتاب

اعتمدنا في بحثنا على كثير من الكتب القيمة المكتوبة باللغة العربية والأجنبية والفرنسية ولم نقصر همتنا على قراءة تلك الكتب المطولة بل تصفحنا كذلك الكتب المدرسية وما في حكمها من التي لم تكتب بأسهاب عن صلاح الدين مثل تاريخ ابن اياس وتاريخ أسامه وتاريخ المسعودي وابن الوردي وبعض كتب فقهية وأدبية كطبقات الشافعية للسبكي ورسالة التوحيد للشيخ محمد عبده المفتي وكتاب الأسلام ترجمة فتحى زغلول باشا وصبح الأعشى للقلقشندي وكمعجم ياقوت الحموي وحماة الأسلام والتعليم في مصر لأمين سامى باشا وبعض الرحلات والمجلات وإلى حضرات القراء طائفة من أمهات الكتب العربية التي رجعنا إليها في هذا البحث

اسم المؤلف	اسم الكتاب
ابن الأثير	الكامل وما على هوامشه من الكتب
ابن خلدون	العبر وديوان المبتدا والخبر - بولاق سنة ١٢٨٤ هـ
ابن خلكان	وفيات الأعيان - مصر سنة ١٣١٠ هـ
ابن جبير	رحلة ابن جبير
ابن دحلان	الفتوحات الإسلامية
ابن شداد	النوادر السلطانية - مصر سنة ١٣١٧ هـ
أبو الفداء	المختصر في أخبار البشر - مصر سنة ١٣٢٥ هـ
اسماعيل سرهنك	حقائق الأخبار عن دول البحار - بولاق سنة ١٣١٤ هـ

دائرة المعارف	البستاني
حسن المحاضرة - مصر سنة ١٣٢٩ هـ	السيوطي
الخطط - مصر سنة ١٣٢٤ هـ	المقريزي
مصر الحديثة	جورجي زيدان
الحروب الصليبية - مصر سنة ١٣٢٩ هـ	سيد علي الحريري
كتاب الروضتين في أخبار الدولتين	شهاب الدين المقدسي
الفتح القسي في الفتح القدسي - مصر سنة ١٣٢٢ هـ	عماد الدين الكاتب
البحر الزاخر - مصر سنة ١٣١٢ هـ	محمود فهمي
الكافي - مصر سنة ١٣١٥ هـ	ميخائيل شاروويم
دائرة معارف القرن العشرين	فريد وجدي
الكتب الأفرنجية غير المدرسية وما في حكمها	

Authors	Books
Edward A. Freeman	General Sketch of European History
Sayed Ameer Ali	Short History of the Saracens
The Times	Historians' History of the World
Muir, Sir W. T.	The Caliphate. Its Rise, Decline & Fall
Stanley Lane-Poole	Saladin
»	The story of Cairo
Steven Son. W. B.	The Crusaders in the East.
Washington I.	The Lives of the Successors of Moh.
Besant, W. & Palmer, E. H.	Jerusalem
Larousse, P.	Grand Dictionnaire Universal 15 vols.
Justave, Le bon	La Civilisation des Arabes.
Dezobry et Bachelet	Dictionnaire de Geographie et d'Histoire
Michaud J. F.	Histoire des Croisades.
Maily J. E.	L'esprit des Croisades.
	Encyclopaedia Britannica

## فهرست الكتاب

- ص ١ - ٤ مقدمة بقلم الأستاذ الدكتور طه حسين  
ص ١ - ٧ تمهيد  
ص ٨ - ١٥ الفصل الأول في الدولة العباسية :-

الخلافة واختيار الخلفاء - فارس مهد الدعوة العباسية -  
حضارة العباسيين - بدء الضعف في الدولة - الموالى واستبدادهم  
بأمر الخلافة - استقلال عمال الأطراف - ظهور الديلم -  
تغلب السلاجقة وظهور الروح الحربي - وظيفة أمير  
الأمراء والخطبة له - انشاء الأمرات لأصحاب المناصب  
في الدولة - ضعف الدولة وظهور الأسر المختلفة

ص ١٦ - ٢٩ الفصل الثاني في الحروب الصليبية :-

الدعوة إليها - قيام أهل أوروبا - بطرس الناسك - البابا  
أربانوس الثاني - أسباب هذه الحروب - اختلاف المؤرخين  
فيها - سبب نجاح الأفرنج في تملك الولايات اللاتينية بالشام  
ظهور محمود نور الدين زنكي ثم صلاح الدين يوسف بن  
أيوب - سبب فشل الأفرنج - القضاء على أملاك الأفرنج  
في الشام - أثر هذه الحروب في حضارة أوروبا

ص ٢٩ - ٣٥ صلاح الدين : قومه وعشيرته :-

الأكراد ومعيشتهم الأولى - لغتهم - ديانتهم - حكومتهم

أصلهم وتسميتهم - صناعاتهم - أسرة صلاح الدين - نسبها  
موطنها الأول - انتقالها إلى بغداد ثم إلى تكريت  
ص ٣٦ - ٥١ صلاح الدين - أيامه الأولى :-

مولده - رحيل أهله من تكريت - حياته في بعلبك ثم في  
دمشق - تربيته وقول المؤرخين فيها - ما الذي كان يعمله -  
مالذي تعلمه - كيف كان يقضى وقته

ص ٥٢ - ٧٤ صلاح الدين : ابتداء أمره قبل ملكه :-

ظهور السلاجقة - الوزير نظام الملك والأقطاع العسكري  
مصر وخلفاء الفاطميين - فتنة الوزارة بها - وزارة شاور  
الأولى - تغلب الضرغام عليه - هرب شاور إلى نور الدين  
وحملة شيركوه الأولى - وزارة شاور الثانية - محالفة لملك  
القدس أمريك - غزوة شيركوه الثانية - نقض أمريك  
شروط المحالفة - تخرج مر كز شاور - استنجد الخليفة الفاطمي  
بنور الدين - حملة شيركوه الثالثة - مقتل شاور - وزارة  
شيركوه - وفاته

ص ٧٥ - ١٠٠ حياة صلاح الدين العملية : الدور الأول في مصر :-

صلاح الدين وزيراً للفاطميين ومندوباً لنور الدين - فتنة  
العبيد - الأفرنج في دمياط - غزوة مدينة غزة وبلاد القدس  
الجنوبية - استيلاء صلاح الدين على مدينة العقبة - الخطبة  
للخليفة العباسي - وفاة العاضد آخر خلفاء الفاطميين وانقراض

دولتهم - توزيع كنوز القصر وكتبه وسياسة صلاح الدين التي اتبعها مع المصريين - فكرة بناء القاعة والسور - سياسته مع نور الدين - غزوة الشوبك والجفوة بينه وبين نور الدين إيفاء صلاح الدين أخاه طوران شاه إلى السودان - غزوة الكرك وازدياد الجفوة - وفاة نجم الدين أيوب - غزوة بلاد اليمن ومؤامرة عمارة اليمنى واتفاقه مع الأفرنج - فشل المتآمرين - كسر الأفرنج في غزوتهم الأسكندرية - وفاة نور الدين - موت ملك القدس أمليك

١٠١ - ١٢٨ الدور الثاني: صلاح الدين في الشام: -

الملك الصالح إمام عيل بن نور الدين والأمرء الشامية - سيف الدين صاحب الموصل واستيلاؤه على أملاك الملك الصالح - سياسة صلاح الدين - انتقال الملك الصالح من دمشق إلى حلب - كهشتكين واستبداده بأمر الملك الصالح - خوف الأمرء من كهشتكين واستنجادهم بسيف الدين صاحب الموصل ثم بصلاح الدين - قيامه من مصر إلى دمشق واستيلاؤه عليها - مسيره إلى حلب ومحاصرتها العمل على اغتيال حياة صلاح الدين ومخالفة كهشتكين للأفرنج - تحالف الملك الصالح وسيف الدين صاحب الموصل الحرب مع صلاح الدين وانهزام المتحالفين - حصار حلب ثانية - محاولة اغتيال صلاح الدين مرة أخرى - حصار حلب

ثالثة - الصلح بين المتحاربين - خلع الخليفة العباسي وأمره  
بالولاية لصلاح الدين - قطع الخطبة للملك الصالح - غزوة  
بلاد الأسماعيلية - عودته إلى مصر - بدء بناء القلعة - غزوة  
الأفرنج لجهات دمشق - قيام صلاح الدين إلى عسقلان  
وغزوة جهات فلسطين الجنوبية - انهزامه - رحيله بالجيش  
من مصر إلى دمشق - بناء الأفرنج قلعة يعقوب - نزاه  
الأفرنج وتخريب قلعة يعقوب - مهادنة الأفرنج له - غزواته  
في جهات سوريا الشمالية - مخالفة أمرائها له - عودته إلى  
مصر - تقض أمير الكرك شروط الهدنة - وفاة سيف  
الدين صاحب الموصل - وفاة الملك الصالح إسماعيل - قيام  
صلاح الدين إلى الشام - الأغارات على بلاد الأفرنج -  
حصاره لبيروت - رحيله عنها إلى الموصل - تحالف أمراء  
الجزيرة معه - حصار الموصل - استيلائه على سنجار وغيرها  
مسيره إلى حلب واتفاقه مع صاحبها - دخوله حلب - رحيله  
إلى دمشق - غزوة أمير الكرك لبلاد العرب وانهزامه  
حصار الكرك - الصلح مع الأفرنج - مرضه والصلح مع  
أمير الموصل

ص ١٢٩١ - ١٨٥ الدور الثالث : صلاح الدين في فلسطين :-

أحوال مملكة القدس واختلاف كلمة الأفرنج فيها - انحياز  
رياموند إلى جانب صلاح الدين - صاحب الكرك وقافلة

حجاج المسلمين - اجتماع جيوش المسلمين - اجتماع كلمة الأفرنج - واقعة حطين واستيلاء صلاح الدين على طبرية - قتل أمير الكرك وبغض أسرى الأفرنج - استيلاء المسلمين على عكا ويروت وغيرها - إهمال صلاح الدين مدينة صور ومحاولته منع كوناورد من تحصينها - فتح عسقلان وماجاورها - مسيره إلى بيت المقدس واستردادها - معاملته لأفرنج القدس حين خروجهم - تطهيره الأماكن المقدسة واستحضاره المنبر الذي أنشئ للمسجد الأقصى أيام نور الدين - حصار صور وتقهقر المسلمين ونتيجة ذلك - النداء في أوروبا بحملة صليبية لأتخاذ بيت المقدس - مسير السلطان إلى أنطاكية وطرابلس فك أسر الملك جوى - الصلح مع صاحب أنطاكية - استيلاء المسلمين على عدة بلاد - قيام الأفرنج على عكا وحصارها وصول الأمبراطور فردريك بارباروس وغرقة - وصول فيليب ورتشارد - مسير الأفرنج إلى يافا - محاولة الصلح مع السلطان - تخريب عسقلان وغيرها - الرحيل إلى القدس قصد الأفرنج القدس - العدول عنها إلى عسقلان وتعميرها مقتل كوناورد - العودة إلى قصد القدس - العدول عنها إلى غيرها - مسير الأفرنج إلى عكا - اقتفاء المسلمين أثرهم ودخولهم يافا - ارتدادهم عنها - الصلح ووساطة الملك العادل شروطه - مغادرة رتشارد الشام إلى بلاده - نتيجة الحرب

مسير صلاح الدين إلى القدس ثم إلى دمشق - وفاته

ص ١٨٦ - ٢٠٠ خاتمه

صفات صلاح الدين وأخلاقه وسيرته في رعيته - مقاله سمو  
الأمير محمد علي - زيارة أمير اطور ألمانيا القبره - أقوال الأفرنج  
في صلاح الدين - أعمال صلاح الدين المدنية - فتح المدارس  
الإنشاء الخوانق والرُبط - بناء السفن وإصلاح الجسور - بناء  
البيمارستانات - إبطال المكوس

ص ٢٠١ - ٢٠٢ المصادر التي عولنا عليها في كتابة هذا الكتاب

### ﴿ الخرائط والصور ﴾

صلاح الدين - البابا أربانوس الثاني - بطرس الناسك  
الملك أموري - خريطة القاهرة - قلعة صلاح الدين - خريطة  
فتوحات صلاح الدين - نسر صلاح الدين - بيت المقدس  
حصن الأكراد - قبر صلاح الدين - خريطة أملاك صلاح الدين

(ملاحظة) وقع الخطأ المطبعي الآتي فأعتذر لحضرات القراء :

ص	س	خطأ	صواب
١٣	١٠	ان	أنه
٤٨	١٥	الواقد	الوافد
٥١	١٠	٥٧٢	٥٥٧٢
١٢	١٤	بتجريد	بتجريد
٦٤	١٧٤١٥	البلد	البلدة
٨٠	١٢	هو	هم
٨٠	١٥	التعرض	التعرض
٩٠	١	الامير	الأمير
٩١	٢	عدل	بدل
٩٣	١٢	الى	إلا
١٦٤	١٨	حراكته	حركاته
١٦٨	١٨	اللائبني	اللاتيني
١٨٥	١٦	اعترفوا	اغترفوا
١٩٤	٢	استولوا	استولى